المستعمرة الذرية

للأستاذ محمد محمود زيتون

قالوا «العلم لا وطن له» وهم بذلك أرادوا ألا تدنس السياسة أقداس العلم، ومحاريب العلماء، بل أرادوا ألا يتأثر العالم في علمه وبحثه بأي عامل سياسي أو جنسي أو ديني حتى يتحقق للعلم استقلاله، ويؤدي رسالة النهوض بالإنسانية إلى ما يخفف عنها أعباءها، ويختزل الصعاب التي تواجهها.

وهذا ما يفهمه كل إنسان على ظهر هذا الكوكب المعمور، فليست عملية حسابية أو تجربة كيميائية أو ظاهرة طبيعية أو عملية جراحية مما ينسب إلى وطن بعينه، وإنما هو الفكر الواحد الذي يسود مظاهر العلم بعيدا عن حدود الزمان والمكان، ولذلك يقال في معرض التفرقة بين العلم والفن: العلم موضوعي الفن شخصي

ومع ذلك تمخضت نزعة الجنس الألمانية عن «الكيمياء النازية»، فكانت من الأصداء المكوسة للاستقلال العلمي، فارتكست ألمانيا في قرار غير ما كانت تريد وتأمل مع تلك العظات التي شيدت أركانها وشدت بنيانها.

فإذا عرفنا أن الكون في شتى صوره ليس إلا شيئين هما: الإنسان والطبيعة، استطعنا أن نقول إن الإنسان في محاولته التعرف على الطبيعة إما راغب في معرفتها كما هي عليه فذلك هو العلم، أو كما يريدها هو فذلك الفن.

وتبدو الطبيعة للإنسان في بادىء عهده بها كلا لا يتجزأ، فما يزال يتقرب منهـا حتى يدور حول هذا «الكل» ليعلم تفاصيله وأجزاءه، وبذلك ينتقل من إدراك الصورة الكلية (الجشتالت) إلى العناصر والأجزاء، ويكون هذا التحطيم من عمل الفكر، وإن لم يكن له في الوجود وجود، حتى إذا تحقق كان الفكر أسبق شيء إلى توهين القوى، وتحليل الكامل.

وما دام الإنسان في تصميده قدما في معرفة الطبيعة يعترف على نفسه بالجهالة كلما تبين له الخطأ فيما كان يزعمه صوابا، فلاشك أن هذا الجهل الذي لا يرضاه يحفزه بطبعه إلى التعمق والتفحص والتمرس بالطبيعة حتى يحطم كيانها، ويفتت أجزاءها، ويحلل عناصرها بعد أن كانت في نظره البدائي «طاقة كلية».

وهذا هو ما يعرفه كل متتبع للتطور العلمي، والتصاعد الفكري للإنسانية في شتى أعصارها. ألم تكن «الذرة» سرا خفيا، وجزءا لا يتجزأ، ثم إذا بنا أمام ثورة فكرية هائلة على هذا الجمود، فطالعنا علماء الطبيعة بتحطيم الذرة وانقسامها، حتى لقد سارعوا إلى توكيد ذلك عمليا بما سموه «القنبلة الذرية» التي تشرفت بها «هيروشيما» البائدة فأصبح عاليها سافلها كأن لم تغن بالأمس، ثم انفضت الحرب، ووضعت أوزارها، فإذا بجزيرة «بيكيني» تهتز برا وبحرا وجوا، ومن يدري ماذا سيكون بعد الذي كان، وما لم يكن، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟

لسنا نشك في أن «الثورة الذرية» ستغير من جميع أوضاع الحياة الإنسانية في مظاهرها تغييرا بدت آثاره فيما بين ظهرانينا الآن، أما الأيام القادمة فليست غير توكيدات عملية صريحة لهذه الآثار.

كانت النظرة الانسانية إلى الطبيعة شاملة غاية الشمول، عامة كل العموم. ثم صرنا نقول: الشرق الغرب، ولكل «كتلة» هومولها، وهناك القارات فاذا بالقارة الواحـدة تنقسم إلى قسمين، فأصبحت أمريكا أمريكتين، وانشطرت من ثم كل واحدة إلى ما لا عداد له من الولايات. وهكذا الحال في الهند والصين وفي غير الهند والصين.

قد يقال إن النواة البيولوجية هي أصل الانقسام، ولكن عاملا جديدا دخيلا له أكبر الأثر في كل انقسام وهو «الاستعمار» الذي وجد لنظرية «فرق تسد» مركبا سهلا وهو تحطيم الذرة فاتخذها ذريعة للوصول إلى غايته.

لقد استأثرت أمريكا — وهي دولة الاستعمار العصري — بأسرار التحطيم الذري، ولم لا يكون لهـذا السر أصداء بقيت هي في الواقع (ظواهر) للطاقة الكامنة. فالكهرباء كانت لا ندري عنها غير ما يظهر لنا من نور وحركة وحرارة، فتحطمت هذه الطاقة، وانكشف سترها وخافيها، ولم تعد طلسما يعيي العقول ويحير الألباب.

وكذلك « الوحدة السياسية » التي توافر عليها كثير من العوامل الجغرافية والتاريخية والجنسية والاجتماعية ، تأخذ هذه الوحدة في التقدم والنمو حسب مقدراتها الخاصة والعامة ، ولكن كيف تقف أمريكا وغيرها من الدول الدائرة في فلكها إزاء هذه « الوحدة » في عصر الذرة ؟ وكيف يصح في الأذهان الذرية أن يظل شعب واحد على ما هو عليه من تماسك وتضافر في عصر انحلت فيه كل قوة ، وانشقت العصا ، وحل التخاذل والانحلال مكان التساند والاستقلال ؟ بل كيف يكون الفرد الواحد متماسك الوعي ، ثابت الاتزان ، متكامل الوجدان ؟

شق ذلك على المستعمرين الذريين ، فالتمسوا السبيل إلى تحطيم الفرد بتحطيم الأعصاب ، فأصبح موزع الشعور ، صريع الهوى ، شتيت الفكر ، غريب القلب والعقل واليد واللسان ، ودفعهم إخلاصهم « لهذه الإشارة » إلى تفتيت كل وحدة ، وتحطيم كل قوة ، وتفريق كل متماسك ، وتصديع كل ما هو « كل » ، وتذرعوا بهذه البدعة الجديدة من الحروب التي لا تعرف الزحف والإدبار ، ولا الكر والفر ، حرب لا يحمى وطيسها مبادىء ، ولا يعقد ألويتها زعامة ، ولا يحرص عليها إيمان ، تلك هي « الحرب الباردة » التي توحي بها السياسة العقربية التي شعارها « تلدغ العقرب وتصيء » .

ومظاهر التحطيم واضحة في كل مكان : فالحكام في البلد الواحد معتدلون ومتطرفون ، وفي البرلمان الواحد أصحاب يمين وأصحاب يسار ، وفي الدولة الواحدة أصلاء ودخلاء . فهذه دول مغلوبة على أمرها ، توزع الاستعمار نفوذه فيها ، ويزكي بعضه بعضا ، ويدفع معور عن معور كما يقول الشاعر . وهذه فلسطين ظلت كتلة واحدة حتى دس الاستعمار أفاعيه ، فشطرها إلى عرب ويهود ، ثم إلى يهود من الشرق وآخرين من الغرب ؛ وأخيراً إلى يهود عصابة شتيرن ويهود عصابة ڤيومى .

وهذا وادي النيل يعملون على فصل شماله عن جنوبه ، وأندنسيا يقسمونها بين الهولنديين والوطنيين ، واليونان يشطرونها بين الثوار والآمنين . واجتاحت الصين شيوعية حمراء تقاومها عناصر صفراء ، وكوريا يفصلون شمالها عن جنوبها ويحرضون هؤلاء بهؤلاء .

وبينما تنتظم الكتل السياسية المزعومة تباعا في هذا العصر الذري مثل كتلة (البنلكس) وكتلة البحر البلطي ، والكتلة الغربية الديمقراطية في مواجهة الكتلة الشرقية الشيوعية ، بينما يكون ذلك ، نرى الخطر يحدق بالدول الصغرى التي ليس لها في هذا النزاع الدولي القائم ، ناقة ولا جمل . ولعلها لا تنخدع بنخوة التكتل والتجمع ، ونشوة التحالف المقنع . فليحذر دعاة الكتلة الافريقية .

اللهم إن كل جامعة تقام بنيانها على غير أساس لا تقوم إلا على شفير منهار ، إذ الأساس الذي يجب أن يدعم حقا هو الضمير النقي السليم الذي يستحضر مركباته من خوف الله ، وحب الناس ، وعمل الخير ، ورعاية الحق ، ودفع الشر ، وهدم الباطل . بهذا لا تكون السياسة ، وسياسة الأنانية بالذات ، هي الباعث على التجمع والائتلاف ، ويوم لا يكون هم العالم إلا الدفاع أو الهجوم فقل على الإنسانية وتراثها ألف سلام .

والأركان السليمة التي لا تتصدع مهما تمكن عوامل التعرية إنما يدعمها الدين المتين ، واللغة القومية ، والهدف النبيل ، والماضي المؤلف ، والأمل المشترك ، وتلك هي « الجامعة الإسلامية » التي وضع بعض لبناتها دعاة القوة في ماضينا أمثال : الأفغاني ومحمد عبده ومصطفى كامل ، والتي لن يكون للعالم المترنح خلاص إلا بها ، فقد اكتملت معداتها ، وتهيأ لها الفرد ، واكتمل فيها الدستور ، واتضحت الوسيلة والغاية ، وتغلغل الإيمان بها في كل قلب ، واستنار العقل بما عنده وعند غيره في الماضي والحاضر ، وليس إلا دور النزوع والخروج من حيز الأمل إلى ميدان العمل ، العمل الايجابي المنتج في غير تراجع أو نكوص . أما « جامعة العرب » فلم يغمض الاستعمار عنها جفنه . ونحن لا نستطيع جدالا في أصالتها وتعمق جذورها ، وستظل إلى وقت غير بعيد ارهاصا يبعث جديد لأمها الكبرى « جامعة الإسلام » وهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها .

ولن يغيب عنا أن سياسة الاستعمار الذري أو التحطيم المصري تتربص بنا ، وتتدخل في الداخل والخارج بشتى الأساليب ما ظهر منها وما بطن ، غير أن البداهة المنطقية تقول إن القوة لا تفنى إلا بالقوة و « لا يفل الحديد إلا الحديد » والحكمة